

سياق الآية اللفظي ووظائفها في التفسير

حامد دژآباد*

أستاذ مساعد، قسم علوم القرآن والحديث بجامعة طهران، فريديس الفارابي

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٧/٥/٣٠؛ تاريخ القبول: ٢٠١٧/٩/٦)

الملخص

السياق هي القرينة الوحيدة المتصلة اللفظية التي تمثل دوراً مهماً في تفسير القرآن الكريم. حيث تجاهلها يورط المفسر في الخطأ ويؤدي إلى إفادة معنًى غير مقبول من الآية. من أهم وظائف السياق في التفسير كما يلي: تحديد مرجع الضمير، تحديد دور الكلمة النحوي وإعرابها، تعيين القراءة الصحيحة أو تفضيلها، كشف الكلمة أو الكلمات المقدر والمحذوفة في الآية... يحاول هذا البحث استخدام المنهج الوصفي- التحليلي للكشف عن خطأ بعض الاستنباطات التفسيرية الناتج عن تجاهل قرينة السياق وعدم الاكتراث بشروط تحقق السياق، إضافة إلى بيان وظائف السياق وإثبات عدم محدوديتها، لكي ينكشف مدى أهمية السياق من هذا المنطلق أكثر فأكثر. وحسب أهم النتائج فإن الكلمات والآيات القرآنية مترابطة بشكل منتظم وإن أسلوب صياغتها يمنحها مضموناً خاصاً. ثم إن الترابط في المعنى وصدور الكلام يعتبر من شروط تحقيق السياق اللفظي، وبسبب تجاهل هذه الشروط قدم عدد من المفسرين تفسيراً غير صحيح عن الآيات المتعلقة بموضوع الإمامة.

الكلمات الرئيسية

القرينة، السياق، التفسير، الوظيفة.

مقدمة

يؤدّي الاعتناء بقرائن الجملة أو الكلام والاطّلاع على دور كل واحد منها، دوراً رئيسياً في فهم الآيات القرآنية ولا محالة أن كل مفسّر عليه أن ينتبه إلى هذه القرائن ويستخدمها في تفسير الآيات؛ لأنّ تجاهل هذه القرائن أو عدم استخدامها الصحيح، يجعل الاستنباط التفسيري ناقصاً أو غير موثوق به. ومن جملة هذه القرائن، هي السياق وهي القرينة الوحيدة المتصلة اللفظية التي لها تأثير كبير في فهم قول الله سبحانه وتعالى. (انظر: البنية والسياق وأثرها في فهم النص، مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد الأول، ١٤٢٦)^١

هناك البعض من الباحثين والعلماء الذين أكّدوا على أهمية قرينة السياق وضرورتها نحو الزركشي الذي يعتبر أن فهم الآيات التي لم يرد خبر معتمد في تفسيرها يتوقف على التدقيق في معاني مفردات الآيات واستخداماتها حسب سياق الآيات، قائلاً: «كما أن الراغب اهتم بالأمر اهتماماً بالغاً في المفردات، وذكر فيما يتعلق بتفسير معاني الألفاظ حسب السياق قيماً زائداً عما قاله اللغويون» (زركشي، ١٤١٠: ج ٢، ٢١٣) أو رشيد رضا الذي أكد في تفسير المنار على أهمية السياق. (رشيد رضا، دون تا: ج ١، ٢٢)

كما يقول السيد محمد باقر الصدر: «النظرة التجزيئية (التي تتجاهل صلة وسياق الآيات) أحدثت مواقف متباينة بين الفرق وأدت إلى نشوء تناقضات مذهبية عديدة في العالم الإسلامي طوال التاريخ» (الصدر، ١٣٥٩: ١٢).

يبلغ السياق درجة من الأهمية بحيث أن البعض من المفسرين نحو العلامة الطباطبائي رحمه الله يعتبرون دلالة السياق أقوى من ظاهر الروايات وفي بعض الأحيان اعتبروا ظاهر الروايات معارضاً لسياق الآيات، فلذا تصرفوا في ظاهر الروايات كي لا يخالف الظاهر السياق. (الطباطبائي، ١٤١٧: ج ١٧، ٧ و ٩)

مع هذا قد غفل بعض من المفسرين عن هذه القرينة ووظائفها فبالتالي قدّموا تفسيراً غير صائب من الآيات القرآنية. فهنا يتبادر إلى الذهن بعض الأسئلة: ما هو السياق؟ وما

١. هناك نظريات مختلفة بشأن أقسام السياق، فالسياق في رأي البعض يقسم إلى السياق اللفظي والسياق العاطفي وسياق الموقع والسياق الثقافي، وهناك من يرى أن الكلام له قرائن لفظية وغير لفظية، ويطلق اسم السياق على القرينة اللفظية فحسب. ويشير هؤلاء في موضوع القرائن غير اللفظية إلى ظرف النزول وظرف الكلام وهما يشملان الزمان والمكان والموقع ونبرة المتكلم.

هي وظائف السياق؟ وما هي تداعيات عدم الالتفات إلى السياق في تفسير الآيات القرآنية؟ وما هي شروط تحقق السياق؟

وكما يحاول هذا البحث التعريف بالسياق وبيان وظائفه المتنوعة، فإنه يرمي أيضاً إلى الكشف عن خطأ بعض الاستنباطات التفسيرية، لكي ينكشف مدى أهمية السياق من هذا المنطلق أكثر فأكثر.

وفي نهاية البحث تم تناول موضوع «شروط تحقق السياق» الذي يعد قضية هامة فيما يتعلق بموضوع السياق حيث إن تجاهل تلك القضية أفضى إلى وقوع كثير من مفسري أهل السنة (كالآلوسي وسيد محمد رشيد رضا) في الخطأ بشأن تفسير آيات تخص أهل البيت (كآية التطهير، سورة الأحزاب/ ٣٣ أو آية إكمال الدين، سورة المائدة/ ٣).

وفي العالم العربي أيضاً تم تصنيف رسائل ومقالات عديدة بهذا الشأن منها «السياق وأثره في توجيه المعنى في تفسير الطبري» للدكتور محمد بن عدة، رسالة الدكتوراه، جامعة محمد بن عبد الله في المغرب، ١٤١٨هـ، و«الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق مثل من سورة البقرة» للدكتور خلود ابراهيم سلامة العموش، رسالة الدكتوراه، جامعة العربية، ١٩٩٨م، و«دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير من خلال تفسير ابن جرير» للشيخ عبدالحكيم القاسم، رسالة الدكتوراه، جامعة الإمام، ١٤٢٠هـ، و«دلالة السياق وأثرها في توجيه التشابه اللفظي في قصة موسى» للشيخ فهد بن شتوي الشتوي، رسالة الماجستير، جامعة أم القرى، ١٤٢٦هـ. يظهر من أسماء هذه الرسائل أن كلاً منها تتناول كتاباً تفسيرياً أو سورة أو قصة بعينها، ولا تحاول أن تسبر غور تطبيقات السياق اللفظي والكشف عن أخطاء كبار المفسرين التفسيرية وتوضيح شروط تحقيق السياق سيما بشأن الآيات المتعلقة بموضوع الإمامة والولاية.

يجدر ونخص بالذكر أن في بعض الكتب اكتُمي بذكر أربع من وظائف السياق لكن هذا البحث يناقش إحدى عشرة وظيفة للسياق مع الأمثلة العديدة في منهجٍ وصفي- تحليلي، ويثبت أن وظائف السياق ليست محدودة وهناك شروط لتحقيق السياق يجب الانتباه إليها في التفسير. وبما أن العلامة طباطبائي أحرز قصب السبق في اهتمامه بموضوع السياق مقارنة بالمفسرين الآخرين، فإن هذا البحث يهتم بأرائه في هذا الشأن أكثر من آراء المفسرين الآخرين.

السياق لغةً واصطلاحاً

"السياق" مصدرٌ وأصلها "سِوَاقٌ" من مادة "سَوَّقَ" تعني القيادة. (ابن اثير، ١٣٦٧: ج٢، ٤٢٤؛ ابن منظور، ١٤٠٦: ج١٠، ١٦٧) «تَسَاوَقَتِ الْإِبِلُ تَسَاوِقًا إِذَا تَتَابَعَتْ». «المساوقة» أي المتابعة. (أزهري، ١٤٠٦: ج٩، ١٨٥)

السياق اصطلاحاً عبارة عن ميزة لمفردات أو عبارة أو كلام منبعثة عن ترافقها مع سائر الكلمات والجمل. مثلاً إذا ترافقت جملة «إذهب إلى البحر» بجملة «واستمع حديثه بإهتمام» يقال أن هذه الجملة تمتلك ميزة أو خصوصية بحيث أنه إذا انفصلت الجملتان لَفُقِدَت هذه الميزة. فلأجل ذلك إذا رافقت الجملة الأولى، الجملة الثانية، يراد بها: اذهب عند الرجل العالم، لكن إذا كانت الجملة الأولى لوحدها فمعناها الظاهري: «اذهب نحو البحر»^١ (بابائي، ١٣٧٩: ١٢٠).

قبل تناول موضوع وظائف السياق، يجدر بالذكر أن السياق يُعدُّ واحداً من القرائن التي لا بد للمفسر أن ينتبه إليه في التفسير، فلا يمكن للمفسر الاستغناء عن القرائن غير اللفظية (كشأن النزول ومقام الكلام وغيرها) والقرائن اللبية (العقلية).

وظائف السياق وفوائدها

للسياق وظائف عديدة وفوائد كثيرة في التفسير منها كما يلي:

١. تحديد مرجع الضمير

جاء في بعض الآيات القرآنية ضمائر مبهمٌ مرجعها حيث تعددت الاحتمالات حول مرجعها وبالتالي اختيار كل خيار محتمل يؤدي إلى تفسير متمايز مختلف حول الآيات القرآنية. الانتباه إلى السياق، أحد طرق تحديد مرجع الضمير مثلاً في هذه الآية الشريفة: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ (النساء/١٥٩) هناك تفسيرات مختلفة أساساً للغموض الموجود في مرجع الضمائر في «به» و«مَوْتِهِ» منها:

(١) مرجع الضمير في كلمة ﴿به﴾ عيسى عليه السلام وفي ﴿مَوْتِهِ﴾ المبتدأ المقدر وهو «أحد» أي كانت الآية هكذا «وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِعِيسَى قَبْلَ مَوْتِ الْكَتَابِيِّ» (الطبري،

١. بعض من الباحثين قدّموا تعريفاً عن السياق يشمل جميع القرائن المتصلة لفظيةً أو حاليةً. (الصدر، ١٤١٠: ١٠٢) بينما لا يوجد تطابق بين مواضع استعمال هذه المفردة في آثار العلماء مع هذا التعريف الشامل.

١٤١٢: ج٦، ١٤) طبقا لهذا الرأي تعني الآية أن ما من أهل الكتاب أحد إلّا أنّه يؤمن ببعيسى قبل موته عند الاحتضار على أعتاب التّوْفِيّ حيث تَضَعُفُ علاقتهم بالعالم المادّي أكثر فأكثر وأنّما تتقوى علاقتهم بعالم البرزخ بشكل متزايد، حيث يتم إزالة الأغطية والأستار فيؤمنون بالمسيح بعد مشاهدة مقامه لكنّ إيمانهم هذا لا ينفعهم بتاتا.

(٢) يرجع ضمير «به» إلى النبي محمد ﷺ ومرجع الضمير في «موته» هو المبتدأ المقدر «أحد» فالآية في الأصل هكذا: «وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن بمحمد قبل موت الكتابي» (الطبري، ١٤١٢: ج٦، ١٤). طبقا لهذا الرأي ما من أهل الكتاب أحد إلا أنه يؤمن بالرسول الخاتم محمد ﷺ قبل وفاته.

(٣) مرجع الضمير في كلتا الكلمتين هو عيسى عليه السلام والآية أصلاً هكذا: «وإن من أهل الكتاب إلّا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى» (الطبري، ١٤١٢: ج٦، ١٤). وفقا لهذه النظرية، تعني الآية أن ما من أهل الكتاب أحد إلّا أنّه يؤمن بعيسى قبل حلول موته حينما ينزل عيسى في آخر الزمان من السماء وبعد أداء واجبه يتوفى ويرتحل عن الدنيا.

رغم أن النظريات المذكورة الثلاث قدّمت معاني قابلة للقبول من الآية دون الالتجاء إلى السياق، لكنّ بعد الالتفات إلى السياق، لا يمكن قبول النظرية الثانية. إنّما ضعف هذا القول من حيث لم يجر ذكر لنبينا ص هاهنا وقد جرى ذكر عيسى فالأولى أن يصرف ذلك إليه. يقول الطبري: «ليؤمنن به في سياق ذكر عيسى وأمه واليهود فغير جائز صرف الكلام عما هو في سياقه إلى غيره...» (الطبري، ١٤١٢: ج٦، ١٧). أما حول مرجع الضمير في «موته» لابد أن نقول أن الرأيين كليهما أي (عيسى وأحد) يُناسِبَانِ السياقَ ولا يمكن رفض أحد هذين الرأيين بعد الالتفات إلى السياق. فلذا يلزم أن نراجع الروايات وسائر القرائن. ورد في الروايات ما يؤيد النظرية الثالثة. ذكر علي بن إبراهيم في تفسيره أن أباه حدثه عن سليمان بن داود المنقري عن أبي حمزة الثمالي عن شهر بن حوشب قال قال الحجاج بن يوسف آية من كتاب الله قد أعيتني قوله ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ...﴾ الآية والله إنني لأمر باليهودي والنصراني فيضرب عنقه ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرك شفثيه حتى يحمل فقلت أصلح الله الأمير ليس على ما أولت قال فكيف هو قلت إن عيسى بن مريم ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا ولا يبقى أهل ملة يهودي أو نصراني أو غيره إلا وآمن به قبل موت عيسى

ويصلي خلف المهدي قال ويحك أنى لك هذا ومن أين جئت به قال قلت حدثني به الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام قال جئت واللّه بها من عين صافية فقبل لشهر ما أردت بذلك قال أردت أن أغيظه. (علي بن ابراهيم، ١٣٦٣: ج١، ١٥٨)

في مثال آخر احتمالات متعددة حول مرجع ضمير في فعل **﴿يَعْرِفُونَهُ﴾** في آية **﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾** (البقرة/١٤٦) كما يلي: النبي محمد صلى الله عليه وآله، أمر القبلة، المسجد الحرام، العلم والقرآن. (الطبرسي، ١٣٧٢: ج١، ٤٢٣؛ الرازي، ١٤٠٨: ج٢، ٢٥١). وقال بعض المفسرين نحو الملا فتح الله الكاشاني والآلوسي بأن مرجع الضمير هو النبي الأكرم **﴿كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾** لأن تشبيه معرفتهم بمعرفة أبنائهم حول الإنسان صحيح. (الكاشاني، ١٣٣٦: ج١، ٣٢٤؛ الآلوسي، ١٤١٥: ج١، ٤١١)

أما العلامة الطباطبائي فيقول: "الضمير في قوله **﴿يَعْرِفُونَ﴾**، راجع إلى رسول الله صلى الله عليه وآله دون الكتاب، والدليل عليه تشبيه هذه المعرفة بمعرفة الأبناء، فإن ذلك إنما يحسن في الإنسان، ولا يقال في الكتاب، أن فلانا يعرفه أو يعلمه، كما يعرف ابنه، على أن سياق الكلام وهو في رسول الله، وما أوحى إليه من أمر القبلة، أجنيبي عن موضوع الكتاب الذي أوتيه أهل الكتاب، فالعنى أن أهل الكتاب يعرفون رسول الله بما عندهم من بشارات الكتب كما يعرفون أبنائهم، **﴿وَإِنَّ قَرِيْبًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾** (البقرة/١٤٦)» (الطباطبائي، ١٤١٧: ج١، ٣٢٦).

٢. تحديد كون الآيات والسور مكية أو مدنية

يُعدُّ السياق أحد طرق تمييز الآيات والسور المكية عن المدنية، خاصة حينما لا توجد رواية موثقة حولها أو تعارض الروايات بعضها. مثلاً ثمة خلافات حول كون سورة الدهر مكية أو مدنية، حيث قال بعض المفسرين بمكية السورة تماماً. (الرازي، ١٤٠٨: ج٢، ٦٦؛ البيضاوي، ١٤١٨: ج٥، ٢٦٩) واعتقد الآخرون بمدنية السورة طراً. (الطبرسي، ١٣٧٢: ج١٠، ٦١٢) أما العلامة الطباطبائي قدّم نظرية أخرى وفق سياق الآيات، حيث قال بمدنية بداءة السورة ومكية القسم الثاني منها. كما قال عليه الرحمة: "إن سياق آياتها وخاصة قوله **﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنْدَرِ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ﴾**... سياق قصة واقعة وذكر الأسير فيمن أطعموهم نعم الشاهد على نزول الآيات بالمدينة إذ لم يكن للمسلمين أسير بمكة... ومن المحتمل جداً أن يكون هذا

الجزء من الآيات (الجزء الثاني من آيات السورة وهو قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا﴾ إلى آخر السورة، وهو ذو سياق تام مستقل نازلاً بمكة)، ويؤيده ما في كثير من الروايات المتقدمة أن الذي نزل في أهل البيت بالمدينة هو الجزء الأول من الآيات، وعلى هذا أول السورة مدنيٌّ وآخرها مكِّي. (الطباطبائي، ١٤١٧: ج ٢٠، ١٣٥) كما اعتبر العلامة الطباطبائي آيات من سورة النحل حسب السياق، مدنية وبقية من الآيات مكِّيَّة وفق سياقها المختلف. (الطباطبائي، ١٤١٧: ج ١٢، ٢٠٣)

٣. تحديد أو تفضيل القراءة الصحيحة

قد رويت قراءات متعددة عن بعض آيات القرآن الكريم، وتبني السياق مقياس مهم في تفضيل إحدى القراءات على الأخرى أو تحديد القراءة الصحيحة. مثلاً رويت خلافات في جملة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (البقرة/٢٨٥) فبعض القراء قرؤوها ﴿لَا يُفَرِّقُ﴾ أما الشيخ الطوسي يفضّل القراءة المشهورة بسبب سياق الآية. (الطوسي، دون تا: ج ٢، ٢٨٣)

مثال آخر في آية ﴿وَهُمْ مِّن فِرْعٍ يَوْمِنَا آمِنُونَ﴾ (النمل/٨٩) قرأ القراء غير الكوفيين، كلمة ﴿فِرْعٍ﴾ مضافاً بدون تنوين. فإن قرأت الكلمة بالتنوين فهو فزع واحد من أفزاع ذلك اليوم. (الكاشاني، ١٤٢٣: ج ٥، ١٣٠؛ القمي المشهدي، ١٣٦٨: ج ٩، ٦٠٠) وإن قرأت بالإضافة، يقصد به كل الأفزاع يوم القيامة. (البغوي، ١٤٢٠: ج ٣، ٥٢٠) فالالتفات بالسياق يدلنا إلى أن تفضيل قراءة الإضافة أولى. يقول الطبري: «إن الإضافة أعجب إليّ لأنه فزع معلوم وإذا كان ذلك كذلك كان معرفة على أن ذلك في سياق قوله ﴿وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ (النمل/٨٧) فإذا كان ذلك كذلك فمعلوم أنه عنى بقوله ﴿وَهُمْ مِّن فِرْعٍ يَوْمِنَا آمِنُونَ﴾ من الفزع الذي قد جرى ذكره قبله» (الطبري، ١٤١٢: ج ٢٠، ١٧؛ الرازي، ١٤٠٨: ج ١٥، ٨٦).

٤. رفض بعض الآراء التفسيرية لدى المفسرين

من فوائد السياق ووظائفها، القضاء والحكم بصحة آراء المفسرين أو خطأها. وإن تبني السياق يمكن المفسر أن يزيل الغوامض ويكشف عدم صحة بعض نظريات المفسرين. مثلاً هناك تفاسير وآراء شتى حول جملة ﴿تَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ﴾ في آية ﴿أَإِنكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقَاطِعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ (العنكبوت/٢٩). استنبط بعض المفسرين معنى

السرقه من "قطع السبيل". (الطبرسي، ١٣٧٢: ج٨، ٢٨٠) وذهب البعض إلى سدّ طريق المشاة وإغلاقه في مفهوم "قطع السبيل". (مغنية، ١٤٢٤: ج٦، ١٠٥) لكن ملاحظة السياق، خاصةً الجملة السابقة ﴿لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾ والجملة اللاحقة ﴿تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمْ الْمُنْكَر﴾ تدلنا إلى أنّ المقصود من قطع السبيل، قطع سبيل النسل والجيل وكناية عن الإعراض عن النساء وترك نكاحهن، وسائر النظريات لا تتلائم مع السياق. (الطباطبائي، ١٤١٧: ج١٦، ١٢٣)

٥. تعيين الكلمة المحذوفة في الآية

يتبادر إلى الذهن أن هناك بعض الكلمات المحذوفة والجزئيات التي لم تُذكر لأسباب في بعض الآيات القرآنية خاصةً

الآيات التي تتناول حياة الأنبياء والأمم السالفة، ومن أحد أساليب كشف المحذوفات الانتباه إلى سياق الآية. مثلاً في سورة القصص نقرأ في قصة طفولة النبي موسى ﷺ وبحث أخته عنه بعد إلقائه في الماء: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص/١٢)، يقول العلامة الطباطبائي حول الآية: «إنّ السياق يدلُّ على أن هناك حذفاً كأنه قيل: وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ غَيْرَ أُمِّهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَجِيءَ أُخْتُهُ فَكَلَّمَا اتَّوَا لَهُ بِمَرْضِعٍ لَتَرْضِعُهُ، لَمْ يَقْبَلْ ثَدْيَهَا فَلَمَّا جَاءَتْ أُخْتُهُ وَرَأَتْ الْحَالَ قَالَتْ عِنْدَ ذَلِكَ لَيْلٍ فِرْعَوْنُ: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لِنَفْعِكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ؟» (الطباطبائي، ١٤١٧: ج١٦، ١٣).

٦. تعيين مخاطب الكلام

في بعض الآيات مخاطب الكلام مبهم وغامض فتحتمل وجوه متعددة وإن أخذ السياق بعين الاعتبار، أحد طرق تحديد مخاطب الكلام. مثلاً في آية ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ (الحج/٢٧) توجد خلافات حول تحديد مخاطب الآية. بعض المفسرين قائلون بمخاطبة النبي محمد ﷺ. (الطوسي، دون تا: ج٧، ٢١٠) ولكنّ السياق يدلُّ على أنّ المخاطب هو النبي إبراهيم ﷺ كما جاء في الآية السابقة: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ (الحج/٢٦). في هذه الآية، يوجد أمران إلهيان إلى إبراهيم ﷺ أحدهما ﴿لَا تُشْرِكْ﴾ والآخر ﴿طَهِّرْ﴾ والحديث عن الكعبة المشرفة في المرّة الثالثة كما قال سبحانه وتعالى شأنه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾. فمخاطب الآية المذكورة، النبي إبراهيم ﷺ طبقاً للسياق.

٧. فهم التركيب الصرفي للكلمة

من بين وظائف السياق، يمكننا الإشارة إلى فهم التركيب الصرفي لكلمات القرآن الكريم حيث فيها احتمالات مختلفة صرفيا. مثلا قال بعض علماء التفسير بأن ﴿مُنْسِكٌ﴾ في آية ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ (الحج/٦٧) هي اسم مكان. (مغنية، ١٤٢٤: ج ٥، ٣٤٥) بينما مع أخذ جملة ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ بعين الاعتبار، مفردة ﴿مُنْسِكٌ﴾ مصدر ميمي. يقول القرطبي طبقاً لسياق الآية: «وقوله ﴿هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ يعطي أن المنسك المصدر ولو كان الموضع لقال: هم ناسكون فيه» (القرطبي، ١٣٦٤: ج ١٢، ٩٣؛ الطباطبائي، ١٤١٧: ج ١٤، ٤٠٥).

٨. تحديد الدور الإعرابي للكلمة أو العبارة

ذُكرت وجوه إعرابية مختلفة لبعض مفردات القرآن الكريم وعباراته وإن تبني السياق يُمكن المفسر من تعيين أو ترجيح أحد الوجوه. مثلاً ذُكرت وجوه مختلفة شتى حول إعراب كلمة ﴿قِيَمًا﴾ في آية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيَمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ﴾ (الكهف/١). فذهب بعض المفسرين إلى نصبه لفعل مقدر. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا وَجَعَلَهُ قِيَمًا﴾. (الزمخشري، ١٤٠٧: ج ٢، ٧٠٣) وذهب البعض على حدوث تقديم وتأخير في الآية: ﴿أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ قِيَمًا وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾. (الطبرسي، ١٣٧٢: ج ٦، ٦٩٣) أما العلامة الطباطبائي ذهب إلى كون «قِيَمًا» حالا ثانية بعد الجملة الحالية (ولم يجعل له عوجا) وفقا للسياق ويعدّ سائر الوجوه خلافا للسياق؛ (الطباطبائي، ١٤١٧: ج ١٣، ٢٧٣) لأنه تعالى في مقام حمد نفسه من جهة تنزيهه كتابا موصوفا بأنه لا عوج له وأنه قيم على مصالح المجتمع البشري فالعناية متعلقة بالوصفين موزعة بينهما على السواء وهو مفاد كونهما حالين من الكتاب.

ثم نموذج آخر في آية ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ (الأحزاب/٤٤) فبيّن لنا سياق الآية أن ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ مصدر أضيف إلى مفعوله ولا إلى فاعله، بمعنى أنهم في يوم اللقاء بينهم وبين ربهم يُحييهم الله والملائكة ويسلمون عليهم كما كان موضوع الكلام في الآية السابقة سلام ورحمة الله وملائكته على المؤمنين، ويبدو أن يتحقق هذا السلام وهذه التحية من الله وملائكته في يوم القيامة. (الطباطبائي، ١٤١٧: ج ١٦، ٣٢٩؛ مكارم الشيرازي، ١٤٢١: ج ١٧، ٣٥٥)

٩. تحديد معنى الآية ومرادها

من جملة فوائد السياق ووظائفها، تقييد نطاق شمول الآية خلافا لظاهر اللفظ. مثلا قال بعض المفسرين حول الآية الأولى من سورة المجادلة: ﴿وَأِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الحج/٦٨) أن البُغية من المجادلة مطلقها في أمر الدين. (الآلوسي، ١٤١٥: ج٩، ١٨٨) بينما لا يتطابق هذا الإطلاق مع السياق في الآية لأنه جاء في الآية السابقة: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُكَ فِي الْأَمْرِ﴾ (الحج/٦٧) فيبدو من ظاهر الآية أن بعض الناس كانوا يجادلون رسول الله ﷺ بحجة اختلاف العبادات الإسلامية عن الشرائع السابقة. فبناءً على ذلك لا تتناسق مطلقية المجادلة مع سياق الآية. (الطباطبائي، ١٤١٧: ج١٤، ٤٠٦)

١٠. فهم غرض السورة

تستهدف كل سورة غرضاً أو أغراضاً مختلفة حيث أن الانتباه إلى سياق الآيات قد يساعد المفسر في كشف هذا الغرض. مثلا كتب العلامة الطباطبائي رحمه الله في مستهل سورة لقمان: «غرض السورة كما يومئ إليه فاتحتها وخاتمتها ويشير إليه سياق عامة آياتها الدعوة إلى التوحيد والإيقان بالمعاد والأخذ بكليات شرائع الدين» (الطباطبائي، ١٤١٧: ج١٦، ٢٠٩).

١١. تأييد الروايات أو رفضها

أحد الأدوار وإحدى الوظائف المهمة للسياق، هو القضاء والتحكيم حول صحة الرواية التفسيرية أو عدم صحتها.

كما أمرنا الأئمة المعصومون عليهم السلام أن نقبل كل حديث يوافق كتاب الله وإلا علينا أن ندعه. (الطوسي، دون تا: ٢٢١) مثلاً العلامة الطباطبائي في مستهل سورة النحل بعد أن اعتبر آيات من هذه السورة مدنية حسب سياقها، ويعدُّ الآيات البواقي مكيَّة، يُفضِّل قرينة السياق على الروايات كاتباً: "وهذا وإن لم يوافق شيئاً من المأثور لكن السياق يشهد به وهو أولى بالاتباع» (الطباطبائي، ١٤١٧: ج١٢، ٢٠٣).

اعتماداً على هذا المعتمد يستعين المفسرون بالسياق في بعض الآيات مؤيدين ورافضين الروايات بواسطته. على سبيل المثال في الآية ٤٨ من سورة الأنفال^١ التي ذُكرت فيها

١. ﴿وَإِذْ رَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال/٤٨).

محادثة بين الشيطان والمشركين، ثم روايات تدلُّ على أن الشيطان تَمَثَّلَ بهيئة إنسان في مظهر سراقه بن مالك وجاء عند المشركين وحرصهم على الحضور في معركة البدر ولكنَّه انسحب وهرب بعد أن رأى نزول الملائكة. (الطبرسي، ١٣٧٢: ج ٤، ٨٤٤)

إن بعضاً من المفسرين عدُّوا هذه الروايات ضعيفة فذهبوا إلى أن كانت المحادثة بين الشيطان والمشركين عبْرَ وساوس باطنية. (الأوسى، ١٤١٥: ج ٥، ٢١١) أما نظراً إلى سياق الآية يقول العلامة الطباطبائي تأييداً للروايات الواردة:

« سياق الآية الكريمة أقرب إلى إفادة هذا الوجه الثاني منه (وهو أن الشيطان تصور للمشركين في صورة سراقه بن مالك بن جشعم الكناني) إلى الوجه الأول، وخاصة بالنظر إلى قوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ وقوله: ﴿فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ وقوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية فإن إرجاع معنى قوله: ﴿إِنِّي أَرَى﴾ إلخ مثلاً إلى الخواطر النفسانية بنوع من العناية الاستعارية بعيد جداً» (الطباطبائي، ١٤١٧: ج ٩، ٩٨).

يجدر بالذكر أن التعارض بين السياق والروايات (سيما روايات أسباب النزول) لا يوجب تفضيل السياق إلا إذا كانت شروط تحقق السياق متوافرة، ولكن في حال عدم توافرها مع توافر روايات متعددة وصحيحة، فلا شك أن الروايات أولى ولا ينبغي الاهتمام بالسياق. يشترط في تحقق سياق الآيات شرطان اثنان هما:

أ) الصلة الموضوعية

الشرط الأول في تحقق سياق الآيات هو أن تكون الآيات والعبارات مترابطة في الموضوع والمضمون واختصت كلها بموضوع واحد؛ لأن الآيات والعبارات إذا وردت بشأن موضوعين أو عدة مواضع مستقلة ومنفصلة فلا بأس في عدم الترابط بين مضامينها؛ وبعبارة أخرى فإن المعيار في كون السياق قرينةً هو عدم معقولية صدور عبارات غير مترابطة وغير منسجمة من متكلم عالم في مجلس واحد، وهذا المعيار إنما يتحقق في عبارات تتناول كلها موضوعاً ومضموناً واحداً؛ على سبيل المثال إذا وردت جملة أو جمل معترضة بين الجمل الأخرى لا ينبغي أن نجعل السياق معياراً فننتصرف في معاني ظاهر الجمل المعترضة ونحملها على معاني تنسجم مع الجمل السابقة أو اللاحقة؛ إذ أنه لا يوجد ترابط موضوعي بين الجمل المعترضة وبين الجمل الأخرى؛ ومن أمثالها الآيات (١٦-١٩) لسورة القيامة حيث قال الله تبارك وتعالى في هذه الآيات الأربع (بعد الآيات التي وردت في موضوع القيامة): «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتُجْعَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قُرْآنُهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ».

يدل سياق الآيات الأربع مع الآيات السابقة واللاحقة التي تصف يوم القيامة، على أن الآيات الأربع إنما هي جمل معترضة تبرهن على الأدب الإلهي وتأمّر الرسول ﷺ بالالتزام بذلك الأدب عند تلقي الوحي، وأن لا يقرأ الآيات التي لم توحَ بشكل كامل قبل أن يتم الوحي، وأن لا يحرك لسانه بقراءتها، فهذه الآيات تدل على نفس المعنى المراد من الآية التالية: ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ (طه/١١٤).

لذلك فإن الآيات المذكورة إنما هي جمل معترضة قد تصدر عن المتكلم أثناء الكلام، تماماً كالشخص الذي يلقي خطبة فإذا به يرى آخر المجلس مكتظاً بالمستمعين بينما مقدمة المجلس فاضية، فيقطع كلامه مؤقتاً ويدعو الحضور إلى التقدم قليلاً ليفسح المكان لمن سيحضر المجلس، ثم يواصل كلامه؛ أو كأستاذ جامعي يلمس من طالبه شروداً أثناء التدريس، فيقطع كلامه ويحذره ثم يستمر في التدريس.

إذا استمع شخص إلى تلك الخطبة أو هذا التدريس عبر شريط كاسيت، فربما يقع في الخطأ أو يتعجب من عدم الترابط بين الجمل السابقة واللاحقة، لكنه سوف يتعرف على أن هذه الجمل معترضة شرط أن يدقق في الظروف التي أحاطت بذلك المجلس أو هذا الصف. وهكذا ينصرف الله تعالى مؤقتاً عن الكلام حول القيامة وأحوال المؤمنين والكفار ويذكر نبيه تذكيراً عابراً حول القرآن، ثم يعود إلى موضوع المعاد ويبين حقائق أخرى عن القيامة.

(ب) الترابط في الصدور أو التتابع في النزول

إذا جمعت كلمات متكلم ما في إطار أو كتاب واحد، لا يعتد بالسياق المنبثق عن تتابع العبارات وترابطها واجتماعها إلا إذا كانت العبارات صادرة عن المتكلم بنفس التتابع والترابط؛ إذ أن المعيار في كون السياق قرينة هو ألا تصدر ألفاظ ذات مضامين غير متجانسة عن متكلم عالم وحكيم، وهذا المعيار لا يعتمد عليه بشأن العبارات المتتالية إلا إذا كانت العبارات متتالية ومترابطة لدى صدورها عن المتكلم أي إذا كانت «مترابطة في الصدور»، وفي حال عدم ثبوت هذا الترابط الصدوري بين الجمل فإن السياق المطلوب معدوم في الجمل، وفي هذه الحالة لا يمكن الاعتماد على السياق كقرينة متصلة، ولا يساعدنا هذا السياق في فهم معاني ومضامين العبارات. ونظراً لما أسلفنا إذا ثبت أن آيات كافة سور القرآن الكريم الصغيرة والكبيرة نزلت دفعة واحدة وبالترتيب الحالي في المصحف، فإن الترابط في الصدور ثابت في جميع الآيات، ولكن إذا لم يتم إثبات الترتيب المذكور وكان هناك احتمال أن تكون الآيات أو الجمل الواردة في

آية بعينها مخالفة لترتيب نزولها فإن الترابط في الصدور بين آية وأخرى أو بين عبارة وأخرى مشكوك فيه، ولذلك سوف نحتاج إلى إثبات ترابطها في الصدور أولاً وإذا لم يثبت ذلك فلا يمكن الاعتماد على السياق لفهم الآيات.

على سبيل المثال في آية «وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» (الأحزاب/ ٣٣) ندرك من لهجة وطريقة القول ومضمون العبارة والروايات الواردة في سبب نزولها أن عبارة «إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً» واضحة الاستقلال، فاللهجة وطريقة القول والألفاظ والضمائر المستخدمة في هذه العبارة تدل بوضوح على أن الجملة الأخيرة أي ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ... تَطْهِيراً﴾ عديمة الارتباط بالجملة السابقة وهي مستقلة عنها، ونظراً لكثرة الروايات الصحيحة عن الشيعة والسنة التي تنبئ عن نزول هذه الجملة منفصلة عن الجمل السابقة واللاحقة، وكذلك الروايات التي تخصص هذه الجملة بالنبي وعلي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام (أكثر من سبعين رواية)، فلا يوجد أدنى شك في استقلالية هذه الجملة ونزولها منفصلة عن سابقتها ولاحقاتها.

وعليه فإن الجملة المعنية (آية التطهير) لا تعتبر من الآيات المتعلقة بزوجات الرسول ﷺ وليست متصلة بها من حيث النزول، ولا دليل لدينا يثبت نزول آية التطهير مع الآيات المذكورة، بل يستفاد بوضوح من الروايات أن آية التطهير نزلت منفصلة، لكنها جعلت بجانب الآيات المذكورة عندما جمعت آيات القرآن في عهد النبي ﷺ أو بعده. والدليل على ذلك هو أنه إذا حذفنا الجملة المعنية من آية ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ...﴾ وافترضنا أن الجملة ليست جزءاً منها، نجد أن الآية منسجمة مع الآية التالية ﴿وَأذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ (الأحزاب/ ٣٤) غاية الانسجام ولا يختل انسجامهما بتاتاً.

فتبين أن الجملة المعنية التي وقعت بين آيتين، تشبه عبارة ﴿الْيَوْمَ يَنْسَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (المائدة/ ٣) والتي تخللت آيات تذكر ما حرم أكله.

النتائج

الانتباه إلى السياق والاطلاع على وظائفه في التفسير يعين المفسر في فهم معاني الآيات القرآنية، وتجاهله يجعل التفسير ناقصاً غير وثيق. فعلى ذلك على المفسر أن يلتفت بالسياق ووظائفه كالقرينة الوحيدة المتصلة اللفظية ولا يففل عن سائر القرائن. ذُكرت في هذا البحث إحدى عشرة وظيفة للسياق وهذا رغم ما يقوله البعض عن محدودية وظائف السياق. كما أُشْرنا إلى أمثلة عديدة من الآيات البيّنات برفقة تفاسير المفسرين من الفريقين. لكن السياق له شرطان هما الترابط في الموضوع والترابط في الصدور، وتجاهل هذين الشرطين سيؤدي إلى تفسيرات خاطئة عن القرآن الكريم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١. الألوسي، سيد محمود (١٤١٥هـ). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم. بيروت: دار الكتب العلمية.
٢. ابن اثير الجزري، مبارك بن محمد (١٣٦٧ش). النهاية في غريب الحديث والأثر. قم: مؤسسة مطبوعاتي اسماعيليان.
٣. ابن منظور، محمد (١٤٠٦هـ). لسان العرب. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٤. الأزهرى، محمد بن أحمد (دون تا). تهذيب اللغة. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٥. بابايي، علي أكبر؛ وزملاءه (١٣٧٩ش). منهجية تفسير القرآن. قم: معهد الحوزة والجامعة ومركز سمت للأبحاث.
٦. البغوي، حسين بن مسعود (١٤٢٠هـ). معالم التنزيل في تفسير القرآن. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٧. البيضاوي، عبد الله بن عمر (١٤١٨هـ). أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٨. الرازي، أبو الفتوح حسين بن علي (١٤٠٨هـ). روض الجنان وروح الجنان. مشهد: العتبة الرضوية المقدسة.
٩. رشيد رضا، محمد (دون تا). تفسير القرآن الحكيم. بيروت: دار المعرفة.
١٠. الزركشي، بدر الدين محمد (١٤١٠هـ). البرهان في علوم القرآن. بيروت: دار المعرفة.
١١. الزمخشري، محمود (١٤٠٧هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل. بيروت: دار الكتاب العربي.
١٢. الصدر، محمدباقر (١٤١٠هـ). دروس في علم الأصول. قم: مؤسسة النشر الإسلامي.
١٣. الصدر، محمدباقر (١٣٥٩ش). مقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن. تهران: بنياد قرآن.
١٤. الطباطبائي، سيد محمد حسين (١٤١٧هـ). الميزان في تفسير القرآن. قم: دفتر انتشارات اسلامي.
١٥. الطبرسي، فضل بن حسن (١٣٧٢ش). مجمع البيان في تفسير القرآن. طهران: انتشارات ناصر خسرو.
١٦. الطبري، محمد بن جرير (١٤١٢هـ). جامع البيان في تفسير القرآن. بيروت: دار المعرفة.

١٧. الطوسي، محمد بن حسن (دون تا). التبيان في تفسير القرآن. بيروت: دار إحياء التراث العربي.
١٨. الطهماسبي، عدنان؛ نيازي، شهريار (١٤٢٦هـ). البنية والسياق وأثرها في فهم النص. مجلة اللغة العربية وآدابها، العدد ١: ٣١-٤٨.
١٩. القرطبي، محمد بن أحمد (١٣٦٤ش). الجامع لأحكام القرآن. طهران: انتشارات ناصر خسرو.
٢٠. القمي المشهدي، محمد بن محمدرضا (١٣٦٨ش). كنز الدقائق وبحر الغرائب. طهران: سازمان چاپ وانتشارات وزارت ارشاد.
٢١. الكاشاني، ملا فتح الله (١٣٢٦ش). منهج الصادقين في إلزام المخالفين. طهران: كتابفروشي علمي.
٢٢. الكاشاني، ملا فتح الله (١٤٢٣هـ). زبدة التفاسير، قم: بنياد معارف إسلامي.
٢٣. مغنيه، محمد جواد (١٤٢٤هـ). تفسير الكاشف. طهران: دار الكتب الإسلامية.
٢٤. مكارم الشيرازي، ناصر (١٣٧٤ش). تفسير نمونه. طهران: دار الكتب الإسلامية.
٢٥. مكارم الشيرازي، ناصر (١٤٢١هـ). الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل. قم: مدرسة الإمام علي بن أبي طالب.